١٢ ـ رحلة إلى الهنـــــد

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كليـة الآداب

نظام الدين أوليا وأمير خسرو

وإلى القرب من المقبرة التي بها ضريح همايون مقبرة أخرى بها قباب منثورة أعظمها مكانة عند الناس وأجلها هندسة قبة نظام الدين أوليا .

وهو أعظم صوفية الهند في زمانه ، وأكبر أوليائها حرمة عند الناس حتى اليوم ؛ اسمه محمد بن أحمد بن علي البخاري ، وفد أجداده من بخارى إلى الهند فاستقروا في إقليم بدايون حيث ولد هو سنة ٦٣٦ هـ .

وأخذ العلوم العربية عن علاء الدين الأصولي . ثم رحل إلى دهلي فتلمذ للشيخ شمس الملك والشيخ كمال الدين الزاهد .

وسنة ٦٥٥ لحق بالشيخ الصوفي فريد الدين كَنج شَكَر (كنز السكر) المتوفى سنة ٦٦٤ هـ فصار من مريديه المقربين واختاره الشيخ خليفة له سنة ٦٥٦ فرجع نظام الدين إلى دهلي إلى أن توفي سنة ٧٢٥ هـ .

وقد ذاع صيته ، وعظمت مكانته ؛ فجاءه المريدون من كل صوب ، واجتمع حوله العلماء والأدباء والموسيقيون ، وعظمه المسلمون وغير المسلمين .

وكتب في التصوف والتفسير والحديث ونظم بالفارسية شعراً صوفياً ، ومزاره اليوم يُقصد من أرجاء الهند ، ويعدّه الناس أعظم الأولياء أو من أعظمهم ويسمونه : سلطان الأولياء .

قصدنا إلى مزار نظام الدين فنزلنا في محلة تزدحم فيها القبور والمنازل ، ومررنا خلال قبور تختلف مظاهرها ضخامة وصغراً ، وأبهة وحقارة ومعرفة ونكراً وتتفق على المعنى الذي انطوت عليه ؛ بل اللفظ الذي تنطق به ؛ حتى جئنا حجرة عالية مصمّمة بالرخام والحديد والنحاس سقفها مستطيل مبطّن بالصوف في أشكال جميلة ، والحجرة في جملتها هندسة جميلة أو شعر بليغ . هنا قبر الشاعر الكبير المعروف في الأدب الفارسي والأدب الأردي ؛ الذي يعدّ أول ناظم باللغة الأردية ، وهو أمير خسرو الدهلوي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ .

وكان مروري بقبر الأمير خسرو سروراً مفاجئاً ، ونعمة غير مرتقبة . فوقفت على قبره وقفة تمنيت أنها طالت وكُرّرت .

أقف بالقارئ وقفة قصيرة على تاريخ هذا الرجل الكبير قبل أن نزور نظام الدين أوليا :

هو الأمير أبو الحسن بن الأمير سيف الدين الشمسي ولد في الهند سنة ٦٥١ هـ وكان أبوه تركياً هاجر من نواحي بلخ إلى الهند أيام جنكيزخان وتزوج بنت عماد الملك أحد أعيان الدولة في دهلي ، ومات وابنه خسرو في التاسعة من عمره فكفله جدّه لأمه .

وكان خسرو ذكياً شغوفاً بالتعلم . فنشأ محبوباً مقرّباً عند سلاطين دهلي ، وحظي برعاية سبعة سلاطين متتابعين : من السلطان محمد بن غياث الدين (٦٦٤ هـ — ٦٨٦) إلى السلطان محمد الثاني بن تغلق (٧٢٥ — ٧٥٢ هـ) .

ونبغ في الشعر فنظم منظومات كثيرة منها ديوانه وسبع منظومات قصصية حاكى فيها الشاعر المعروف نظامي الكنجوي منها قصة ليلى والمجنون ، وقصة خسرو وشيرين .

وقد قسّم ديوانه على سني عمره ، وسمى كل قسم اسماً يلائمه :

تحفة الصغر : وهي القصائد التي نظمها من سن ١٥ إلى ١٩

وسط الحياة : وهي القصائد التي نظمها من سن ٢٠ إلى ٣٤

غرّة الكمال : وهي القصائد التي نظمها من سن ٣٤ إلى ٤٣

البقيّة النقيّة : وهي مختارات من شعر الشيخوخة .

وقد ألّف من الكتب والرسائل ما يقارب المائة ، ويقال إن أشعاره تبلغ أربعمائة ألف بيت ، والمجموع منها زهاء مائة وعشرين ألفاً جمعها السلطان الأديب بالسُنقُر من بني تيمور ، وكان من المعجبين بالشاعر ، وقد فضّل منظوماته الخمس على « خمسة نظامي » ، وجرت بينه وبين الأمير التيموري ألُغ بك مناظرات كثيرة في هذا التفضيل .

وكان خسرو من مريدي الشيخ نظام الدين يبالغ في حبّه وإعظامه ، ويروى أنه بينما كان خسرو في صحبة السلطان غياث الدين تغلق شاه في سفره إلى بنغالة جاء نعي شيخه فأسرع

راجعاً إلى دهلى ، واعتزل خدمة السلطان ، وتصدّق بأمواله ، وأقام على مقربة من قبر شيخه حتى مات بعد ستة أشهر ، ودفن بجوار الشيخ الذى أحبه وصحبه فى حياته ، وزهد فى العيش بعد مماته . فكان فى نجاور القبرين لن يعرف سيرة الرجلين قصيدة صوفية بليغة .

وزرنا ضريح نظام الدين وهو حجرة واحدة حولها سياج من الرخام الأبيض المخرّم فى دقة وإتقان وعليها قبه جميلة ، وعلى جدران الحجرة وعلى المقصورة من بدائع الصنع ، والتحلية مايشغل بصر الزائر حتى فى هذا المقام الجليل المهيب ، ورأينا هناك حلية مهداة من نظام حيدر أباد .

ورأينا أبياتاً فارسية أرّخ فيها موت الشيخ بكلمة « شهنشاه دين » = ٧٢٥

وكذلك قرأت عند قبر أمير خسرو أبياتاً فيها تاريخ وفاته بكلمات فارسية (طوطى شكر مقال) ، وكلمتين عربيتين (عديم المثل) وكلتا العبارتين يدلان على سنة ٧٢٥ هـ .

ورأينا على مقربة من هذه الحجرة قبة كبيرة على قاعة واسعة يقال إن السلطان علاء الدين بناها ليدفن فيها الشيخ فأبى الشيخ أن يكون فيها قبر ، واتخذها مسجداً .

***

وفى جوار الشيخ قبور لأمراء الدولة التيمورية وأميراتها ، عائذات بهذا الجوار الكريم . كل قبر حوله سياج من الرخام أظهرت فيه الصنعة قدرتها وإبداعها كأنما هذا الحجر كان شمعاً فى يد الصانع أو عجيناً .

وشدّ ما أثر فى نفسى بين هذه القبور قبر جهان آرا (زينة الدنيا) بنت السلطان شاه جهان ، وقد بلغ منى بيت بالفارسية منقوش على لوح من الرخام هناك :

بغير سبزه نبو شد كسى مزاريرا
كه قبر يوسن غريبان همين كياه بس است

لايكسى أحد قبراً بغير خضرة النبات العشب

فكسوة قبور الغرباء هذا العشب وكفى

وبعد هذا البيت باللغة العربية :

الفقيرة الفانية جهان آرا مريدة خواجكان (أى الشيخ نظام الدين) بنت شاه جهان بادشاه غازى أنار الله برهانه سنة ١٠٩٢

وما فصلنا من هذا العالم عالم الأخرى ، وفى النفس ملؤها من ذكريات الدنيا أوينا إلى قاعة فاسترحنا وشربنا الشاى فى ضيافة الشيخ حسن نظامى من ذرية الشيخ .

وقرأت على الجدار أشعاراً صوفية بالفارسية من مأثورات نظام الدين أوليا .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

صدرت اليوم

الطبعة الجديدة من المجلد الأول

من كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

يقع فى زهاء ٤٩٠ صفحة من القطع الكبير

يطلب من دار الرسالة ومن جميع المكتبات الشهيرة

وثمنه ٤٠ ﻣ عدا أجرة البريد

أخرجته إخراجاً فنياً

مطبعة الرسالة